الفصل الثامن

دراسة اجتماعية لقبيلة استرالية

و. ل. وورنر

obeikandl.com

أولا ــ لمحــة عن مجتمــع البحث

يعيش المورنجن Murngin فى شمال استراليا • وقد بلغ عددهم وقت اجراء البحث ٣٠٠٠ر٣ نسمة تقريبا[١] • وتنقسم القبيلة الى عــدة عشائر ، وكل عشيرة لها اسمها الخاص بها ولها أرضها الخاصة بها • وفى العادة تبلغ مساحة الارض الخاصة بكل عشيرة ٣٦٠ ميــلا تقــريبا[٢] • وبالنسبة لعدد أفراد العشيرة ، فانه يتراوح بين ٤٠ و ٥٠ نسمة •

والمنطقة غنية بالحيوانات والطيــور والاسماك • فهناك الكنغر[٣] والنعام والثعلب الطائر والتمساح والبط والبلشون وأبو قردان • وهناك أيضا الترسة ، والاهالى يأكلون لحمها وبيضــها كما أنهم يشربون دماءها أيضا[٤] • ويأكل الاهالى كذلك الثعابين والطيور والمحار وقواقع البحــر وبيض التماسيح ، كما أنهم يصطادون السمك من البحر • ومن عاداتهم أنهم يسارعون بطهيه وأكله بعد صيده مباشرة ، وذلك لانهم يعتقدون أن تأخير طهى السمك ، بعد اخراجه من الماء يعرض الشخص الذى يأكــله للاصابة بمرض الجذام[٥] •

---

(١) W.L. Warner, A Black Civilization : A Social Study of An Australian Tribe (Harper and Brothers, 1958), p. 157.

(٢) Ibid, p. 16.

(٣) يصف لنا وورنر طريقة صــيد الكنغر كما يلى : يغطى الرجال الذين يخرجون لصيد الكنغر أجسامهم بالطين وذلك لكى يمنعوا الكنغر من شم رائحتهم أو رؤيتهم ثم ينتظرون فى مكان ضيق بالغابة . ثم تقوم جماعــة من الاولاد ، فى الطرف الاخر من الغابة ، بالسير صفا واحدا فى اتجاه الرجال وهم ينبحون بصوت عال ، تماما كما تفعل الكلاب الاسترالية ويسير الاولاد بخطى بطيئة ، فيخاف الكنغر الموجود بالمنطقة ويتجه نحو المكان الذى يختبىء فيه الرجال . وعندما يقترب الحيوان منهم ، فانهم يهاجمونه بحرابهم ويقتلوه .

(٤) Ibid, p. 142.

(٥) Ibid, p. 144.

كما يأكل الاهالى أنواعا عـــديدة من الديدان التى تعيش داخـــل الاشجار • فاذا وجد أحد أفراد العشيرة شجرة بها علامات تدل على وجود ديدان بداخلها فانه يقوم بشق جذع الشجرة واستخراج ما يوجد بداخلها من ديدان • ثم يقوم بعد ذلك بغسلها وأكلها نيئة •

واذا اكتشف أحد الاهالى وجود خلية نحل بداخل احدى الاشجار فانه يقوم بقطع الشجرة واستخراج ما يوجـد بداخلهـا من العسـل • والاهالى هناك لا يهابون النحـل الذى يعيش فى تلك المنطقـة وذلك لانه لا يلسـع •

obeikandl.com

ثانيا ــ ملاحظات عن كيفية اجـراء البحث

أجرى وورنر هذا البحث فى الفترة من سنة ١٩٢٦ حتى ١٩٢٩ • وقد قام بتقديم التمويل اللازم للبحث « مؤسسة روكفلر The Rockfeller Foundation » و «المجلس القومى للبحوث فى استراليا The Australian National Research Council»

ويلاحـظ أن وورنر قد رجـع الى كثير من الكتابات التى كتبت عن المنطقة • وهذا واضح بصفة خاصة فى الجزء الذى خصصه لدراسة التغير الاجتماعى فى شمال استراليا(٧) •

وبالنسبة لوسائل جمع البيانات ، فاننا نلاحظ أنه قد أقام بمنطقـة البحث واعتمد على الملاحظة وتوجيه الاسئلة • كما نلاحظ أنه قد اعتمـد أيضا على طريقة شجرة النسب •

هذا ويهمنا أن نشير كذلك الى أن وورنر ، أثناء قيامه بالبحث الحقلى، قد قام بقياس حوالى ٤٠٠ شخص من السكان الاصليين تم اختيارهم من مناطق جغرافية مختلفة • وقد خلص من دراسته الى أن سـكان شمـال استراليا لا يختلفون الا بدرجـة ضئيلة عن سـكان وسـط وجنـوب استراليا(٨) •

وفى ١٩٣٧ نشر وورنر لاول مرة كتابه عن المورنجن(٩) • ويشتمـل هذا الكتاب على ثلاثة عشر فصـلا تبحث فى التنظيم الاجتماعى والاسرة والنسق القرابى ونظام طبقات العمر والتكنولوجيا والحرب والسحر والطب والنظام الطوطمى وشعائر الجنازات •

---

(٦) Ibid, p. xi.

(٧) Ibid, p. p. 451—471.

(٨) Ibid, p. p. 518—519.

(٩) A.Black Civilization : A Social Study of An Australian Tribe.

ويلاحظ أن وورنر قد تأثر برادكليف براون عند كتابة تقريره عن المورنجن • فلقد اتبع نفس الطريقة التى اتبعها أستاذه فى كتابه The Andaman Islanders من حيث الفصل بين الوصف والتفسير • فمثلا نجد أن وورنر قد خصص الفصلين التاسع والعاشر لوصف الحقائق المتعلقة بالنظام الطوطمى ، ثم أتبع ذلك بالفصل الحادى عشر الذى خصصه لتفسير الحقائق التى قام بوصفها فى الفصلين السابقين[١٠] •

---

(١٠) يهمنا أن نشير الى أن وورنر ، قبل قيامه بنشر كتاب A Black Civilization سنة ١٩٣٧ قد كتب عددا من المقالات عن المورنجن ونشرها فى بعض الدوريات العلمية ومن الامثلة على ذلك :

«Murngin Warfare,» Oceania, Vol, 1, No. 4, Jan. — Mar., 1931. «The Camp Life of the Murngin», Hobbies, Vol, 11, No, 6, 1931.

ثالثا — عـرض لبعـض نتائج الدراسـة
الحـــــرب(١١)

يذكر لنا وورنر أن الحروب التى تنشب بين الاهالى هناك ترجـع بصفة عامة الى الاسباب الآتية :

١ — قيام أحد أفراد العشيرة بقتل شخص آخر ينتمى الى عشيرة أخـرى .

٢ — المنافسة بين العشائر المختلفة على النساء .

٣ — الثـــأر .

ومما هو جدير بالذكر أن وورنر قد قام ، وقت اجراء البحث ، بعمل احصاء للمعارك التى نشبت خلال العشرين سنة الماضية فى بلاد المورنجن، وقد اتضح له أنها قد بلغت ٧٢ معركة . ومن دراسته للاسباب التى أدت الى قيام هذه المعارك تبين أن ٥٠ معركة منها قد نشبت لرغبة العشيرة فى الثأر لمقتل أحد أفرادها .

وهناك عادات تتعلق بنظام الاخذ بالثار ، يهمنا أن نشير اليها بايجاز:

جرت العادة على تسليم عظام أصابع القتيل الى أقرب أقـربائه من أفراد العشيرة . وهدفهم من الاحتفاظ بهذه المخلفات هو الرغبة فى تذكيرهم بصفة مستمرة بما يجب عليهم للثأر لمقتل قريبهم . وفى العادة تلف عظام الاصابع ببعض الالياف ثم تغطى بشمع العسل وريش الببغاء .

واذا قتل شخص أحد أعدائه بحربته ، وبقى جزء مكسور من الحربة فى جسم القتيل ، فان أهل القتيل يحتفظون بهذا الجزء المكسور من الحربة أيضا كأثر يذكرهم بالثأر لقريبهم .

---

(١١) Ibid, p. p. 155—190.

واذا ما سلمت هذه المخلفات التي ذكرناها الى أحد أقارب القتيل ، فانه يصبح لزاما عليه أن يقوم بقتل أحد أفراد عشيرة القاتل .

ويعتقد المورنجن أن « روح القتيل » توجد دائما مع مخلفاته ، كما يعتقدون أيضا أن هذه المخلفات لها تأثير سحرى . فاذا قام أحد أفراد عشيرة القتيل بالقائها فى النار الموقدة أمام أحد الاعداء ، فانها سوف تجعله يروح فى سبات عميق . كما أن أفراد عشيرة القتيل يحملونها فى فمهم أثناء المعارك ، وذلك لاعتقادهم بأنها تجعل العدو متعبا وثقيل الحركة أثناء القتال .

ويعتقد المورنجن أيضا أن روح القتيل تدخل فى جسم القاتل وتضاعف من قوته البدنية ، كما أنها أيضا تجعل جسمه يزداد .

كما أنهم يعتقدون كذلك أن روح القتيل تحضر الى القاتل فى المنام وتخبره بوجود طعام معين فى مكان معين : « انك سوف تجد عددا كبيرا من حيوان الكنغر بالقرب من النهر » أو « هناك كميات هائلة من عسل النحل داخل تلك الشجرة الكبيرة » أو « انك سوف تجد ترسة ضخمة وعددا كبيرا من البيض بالقرب من الشاطىء » .

وعلاوة على ما تقدم ، فان الاهالى يعتقدون كذلك أن روح القتيل كثيرا ما تظهر على شكل غراب أو ببغاء أو أى طائر آخر وتحوم حول رأس القاتل . وهذه الطيور تجلب الخير له ، فهى ترشده الى الاماكن التي توجد بها الحيوانات ذات الحجم الكبير والتى يرغب هو شخصيا فى صيدها .

ويذكر لنا وورنر أن المورنجن لديهم أنماطا مختلفة من المعارك[١٢] ، ويهمنا أن نتناول بالدراسة النمطين الاتيين بشيء من التفصيل :

أولا ــ قتال المــارنجو The Moringo fight :

هذا النمط من القتال قد سمى بهذا الاسم لان تشــكيل العشــائر المهاجمة لمعسكر العدو يكون على شكل الثعبان وهو ملتف حول نفسه • وفى العادة تجرد مثل هذه الحملات بغرض الثأر لمقتل أحد أفراد العشــيرة • كما يلاحظ أن الفريق المهاجم يحمل معه دائما مخلفات القتيل ، وذلك لانهم يعتقدون أنها قادرة على احداث تأثير سيء فى صفوف الاعداد أثناء القتال•

والاسطورة التالية تقدم لنا وصفا تفصيليا لاحدى معارك المارنجو • وقد قامت الثعابين ، كما تروى الاسطورة ، فى تلك المعركة بالهجوم ليــلا على احدى العشائر :

كان البعض من الناس يقومون بصيد السمك ، بينما انهمك البعــض الآخر منهم فى اشعال النار وطهى السمك • وتصــادف فى ذلك الوقت أن أحد السحالى الصغيرة كان موجودا فى الغابة المجاورة • فلما شم رائحة السمك صاح : « انهم يطهون السمك • سوف أذهب الى هناك !! » وبعــد وصوله الى هناك ، أخذ يأكل حراشيف السمك • الا أن الرجال اكتشــفوا وجوده ، فأمسك أحدهم بعصاه وضربه على رأسه فقتله •

حدث كل ذلك بينما كان والده ــ وهو من النوع الســام الشرير ــ يجلس بعيدا فى الغابة فى انتظار عودته • وبعــد قليل دخلت روح الابن

---

(١٢) بالنسبة للاسلحة الخاصة بالمعارك فان الاهالى يستخدمون الحربة والنبوت Club والسكاكين المصنوعة من الحجارة the stone knife ، كما أنهم أحيانا يستخدمون فؤوسهم المصنوعة من الحجارة . ولا توجــد دروع عند المورنجن .

المقتول في قلب الاب ، فأحدث له ذلك رعشة فى بدنه • وعندئذ عرفة الاب حقيقة ما جرى لابنه فصاح بغضب شديد : « لقد قتل أحدهم ابنى ! » ثم أرسل رسله الى جميع الثعابين والسحالى ليخبرهم بما حدث • ولما حضروا اليه جميعا ، قام بتقسيمهم الى ثلاث مجموعات على شكل ثلاث حلقات •

وعندما بدأ جيش الثعابين فى الزحف اهتزت الارض !! ولما أحس رجال العشيرة باهتزاز الارض ، حسبوا أن ذلك زلزالا ، فأسرعوا الى جزيرة صغيرة يحتمون بها •

وحينما اقترب الجيش من المعسكر ، سنت الثعابين أسنانها وقامت بطلاء أجسامها بطلاء أبيض استعدادا للمعركة(١٣) • كما قامت الثعابين الكبيرة أيضا بالسير على ذيولها وهى تتقدم نحو العدو •

ولما وصل الجيش الى المعسكر ، وجدوا أن أفراد العشيرة قد هجروه ، فاقتفوا آثار أقدامهم الى الجزيرة الصغيرة • وحينما وصلوا الى هناك تحدث أحد الثعابين الى الجنود قائلا : « اننا سوف ننام هنا على الشاطىء حتى قرب طلوع النهار وبعد ذلك سوف نطوق المعسكر والرجال نيام ثم نبيدهم عن آخرهم » •

وعند طلوع نجمة الصبح بدأت الثعابين تعبر النهر • وحينما سمع رجال العشيرة صوتها وهى تسبح حسبوه صوت المد والجزر • ثم قامت الثعابين ، بعد عبور النهر ، بتطويق الرجال من كل جانب ، وقتلوهم جميعا الا واحدا أمكنه أن يختبىء فوق شجرة •

---

(١٣) من عادات الاهالى عند ذهابهم الى القتال انهم يطلون اجسامهم بالطين الابيض .

وعندما غادر الجيش الجزيرة عائدا الى بلاده ، نزل الرجل الوحيد الذى بقى على قيد الحياة من فوق الشجرة وعاد الى قومه وأخبرهم بما حدث • فجردوا حملة من الرجال لقتال الثعابين ، الا أن أحد الثعابين استخدم الصواعق فى ضربهم وهزمهم جميعا •

ثانيا — قتال الماكاراتا : The Makarata fight

قتال الماكاراتا هو قتال شعائرى لعقد الصلح بين طرفين متخاصمين• فاذا قامت احدى العشائر بقتل فرد من عشيرة أخرى ، فانها تنتظر بعض الوقت حتى تهدأ النفوس • ثم تبدأ الاتصالات بين الجانبين بعد ذلك لاقرار السلام وعمل معركة « الماكاراتا » • وبعد الانتهاء من المفاوضات فى هذا الشأن يتجه المحاربون من الجانبين ، وقد طلوا أجسامهم بالطين الابيض ، الى مكان المبارزة الذى تم الاتفاق عليه • ويقف كل جانب فى مواجهة الآخر وبحيث تكون هناك غابة خلف كل جانب خوفا من أن تنقلب « الماكاراتا » الى قتال حقيقى ، فلا يجدون ملجأ لهم يحتمون به •

وعند وصول الطرف الموتور الى الساحة ، فان أفراده يقومون بالرقص ، وينشدون بعضا من أغانيهم •

وبعد ذلك يتقدم الرجال الذين حرضوا القتلة على قتل القتيل ويجرون فى وسط الساحة فى مواجهة أعدائهم بطريقة ملتوية • ويجرى معهم فى نفس الوقت اثنان من الرجال يمتان الى كلا الجانبين المتخاصمين بصلة القرابة • ولا شك أن الهدف من وراء ذلك هو منع أفراد الطرف الموتور من تسديد حرابهم بشدة نحو المحرضين •

وبعد أن يقوم أفراد الجانب المعتدى عليه بنزع رؤوس الحراب التى يحملونها ، يتقدم كل واحد منهم ليسدد حربته نحو المحرضين الذين يجرون

فى الساحة • كما يقوم أفراد الجانب المعتدى عليه كذلك بتوجيه اللعنات الى الجانب المعتدى • ولا يجوز فى هذه الحالة القيام بالرد على الشتائم ، حيث أن ذلك يعتبر اساءة جديدة موجهة الى الجانب المعتدى عليه •

وأخيرا ، وبعد أن تهدأ نفوس أفراد الجانب المعتدى عليه بعض الشىء ، يتقدم أحد المسنين منهم ويأمرهم بايقاف رشق الحراب •

وبعد ذلك يدخل القتلة الساحة ويقومون بالجرى فيها أمام أعدائهم• وعندئذ يقوم أفراد الجانب الموتور بقذف حرابهم نحوهم • ويلاحظ أنهم لا ينزعون رؤوس حرابهم كما هو الحال بالنسبة للمحرضين • ويستمر قذف الحراب فترة من الزمن حتى تهدأ النفوس • وفى أثناء ذلك يقوم المسنون من الجانب المعتدى عليه بنصح أتباعهم بالحذر حتى لا تصيب حرابهم أحدا من أعدائهم • كما ينصح المسنون ، من الجانب المعتدى ، أتباعهم بعدم الرد على الشتائم وكذلك بعدم قذف حرابهم نحو أعدائهم •

وحينما يشعر المسنون من الجانب المعتدى عليه أنهم قد أطفأوا نار غضبهم كجماعة ، فانهم يأمرون أتباعهم بالكف عن رمى الحراب وتوجيه الشتائم • ويتلو ذلك رقص يقوم به الجانب المعتدى ، ثم ينتهى قتال الماكاراتا بعد ذلك بقليل •

هذا ويهمنا أن نشير هنا الى أن هذا النوع من القتال الشعائرى لا يحقق الغرض المرجو منه فى كثير من الاحيان • فقد يفلت الزمام من أيدى المسنين من المعتدين ، فيقوم أتباعهم بالرد على شتائم الجانب المعتدى عليه • وعندئذ تتحول المعركة الشعائرية الى معركة حقيقية •